التّعلّم عن بُعد في العالم العربيّ خلال أزمة كورونا وبعدها: لحظة التّحدّيّ المجتمعيّ

الدكتور. جوهر الجمّوسي[1] الدكتورة. منى طيّاشي[2]
tayachitayachi3@gmail.com

الملخّص

شكّل التّعلّم عن بُعد خلال أزمة كورونا وبعدها في كلّ العالم، وفي العالم العربيّ تحديدا، لحظة التّحدّيّ المجتمعيّ. وكانت تكنولوجيّات المعلومات والاتّصال، محمل هذا التّحدّيّ، ورافعة الإنسان ليكسب معركة البقاء. والمعركة الأسمى هي طبعا معركة المعرفة والعلم. وكان الرّهان الأكبر إنجاح خيار التّعليم عن بُعد والتّعليم الإلكترونيّ والتّعليم الافتراضيّ، الّذي طالما انعقدت حوله النّدوات الفكريّة والمؤتمرات العلميّة، وظلّ حبيس بعض المؤسسات التّعليميّة، ولاسيّما منها الجامعيّة في البلدان المتقدّمة دون البلدان الانتقاليّة والبلدان الواقفة على عتبة التّخلّف الاقتصاديّ والاجتماعيّ والتّعليميّ.

Abstract

Distance learning during and after the Corona crisis in all regions of the world, and in the Arab world in particular, was a moment of societal challenge. Information and communication technologies have been the bearer of this challenge, and the lever for man to win the battle for survival. The ultimate battle is, of course, the battle of knowledge and science. The biggest bet has been the success of the option of distance learning, e-learning and virtual education, around which intellectual colloquia and scientific conferences have long been held, and some educational institutions, especially universities, have locked themselves into developed countries without transition from socially and economically underdeveloped countries.

المقدّمة

هي لحظة تحدّ حقيقيّة يعيشها الإنسان في زمن جائحة كورونا (Covid 19)، الّتي اجتاحت كلّ العالم دون استثناء، وفعلت ما لم تنتظره المجتمعات، وما لم تعشه يوما عبر التّاريخ الحديث والتّاريخ القديم بالتّأكيد. كلّ البشريّة، تقريبا، توقّف نبضها العلائقيّ الرّوابطيّ مع فرض الحجر الصّحّيّ الشّامل في أغلب

[1] الأستاذ الدّكتور جوهر الجمّوسي، أستاذ التّعليم العالي في علم الاجتماع بالمعهد العالي لفنون الملتيميديا بجامعة منّوبة–تونس.

[2] الدّكتورة منى الطيّاشي، أستاذ مساعد بجامعة جندوبة، تونس.

بلدان العالم مرّة واحدة وفي نفس الزّمن. المؤسّسات العامّة والخاصّة أغلقت أبوابها، الشّوارع والفضاءات العامّة توقّفت عن الدّوران، ولكنّ مسار الحياة كان عليه أن يواصل الطّريق ليحيا الإنسان.

لحظة التّحدّيّ الحقيقيّ في كلّ مجالات الحياة. وكانت تكنولوجيّات المعلومات والاتّصال، محمل هذا التحدي ، ورافعة الإنسان ليكسب معركة البقاء. والمعركة الأسمى هي طبعا معركة المعرفة والعلم. كيف يتواصل نبض الأمل في لحظة انتكاس وانحباس وانحسار وانحصار وخوف من العزلة ورهبة من الموت القادم؟

الميديا، تحدّت الوباء، وتَواصل العمل عن بُعد إلكترونيّا من البيوت المغلقة ممنوعة المغادرة. وكان الرّهان الأكبر إنجاح خيار التّعليم عن بُعد والتّعليم الإلكترونيّ والتّعليم الافتراضيّ، الّذي طالما انعقدت حوله النّدوات الفكريّة والمؤتمرات العلميّة، وظلّ حبيس بعض المؤسسات التّعليميّة، ولاسيّما منها الجامعيّة في البلدان المتقدّمة دون البلدان الانتقاليّة والبلدان الواقفة على عتبة التّخلّف الاقتصاديّ والاجتماعيّ والتّعليميّ.

التّعليم عن بُعد كان رهانا، وكان خيارا للمستقبل، وكان حلما ربّما يصعب نيله في عديد المجتمعات، لقلّة ضيق اليد وعدم التّوفّق في بناء القدرات البشريّة وتركيز البنية الاتّصاليّة التّحتيّة الأساسيّة في المجال. الوباء، سرّع السّير نحو هذا الخيار المستقبليّ للتّعليم.

التّعلّم عن بُعد خلال أزمة كورونا وبعدها في كلّ العالم، وفي العالم العربيّ تحديدا، شكّل لحظة التّحدّيّ المجتمعيّ.

تحدّ، لتأمين تواصل دروس التّلامذة والطّلبة في مختلف مراحل الدّراسة مع انتشار وباء لا أحد يعرف متى ينتهي، ومتى يتوصّل العلماء إلى دواء ولقاح ناجع، خاصة في ظل تعدد أنواع التلاقيح في عدة دول غربية ومن عدة مخابر بحث، قد يخفّف وطأته، ويعيد التّعليم لسيرورته العادية، فيعود التّلميذ إلى مدرسته، والطّالب إلى جامعته، والمعلّم إلى قسمه وسبّورته، والأستاذ إلى معهده، والأستاذ الجامعيّ إلى مدرج المحاضرات بما هي الفضاءات الأصلية لتحقيق التواصل البيداغوجي وإيصال المعلومة العلمية مباشرة.

والتّحدّي، لإنجاح مشروع تعليم افتراضيّ، يُنتظر أن يكون متوافقا مع مدن الذّكاء، الّتي يتّجه العالم إليها في قادم السّنوات عند انتشار استخدام الجيل القادم أو البروتوكول الخامس للإنترنت (Ipv6).

إنه تحدّ، ليواصل الإنسان حياته الطّبيعيّة، بعيدا عن العزلة وهجر العلم...

هذا التّحدّي، متعدّد الأوجه والأبعاد، يجعلنا نفكّك إشكاليّة بحثنا من زواياها الفلسفيّة والتّربويّة والتّكنولوجيّة والاجتماعيّة، فنبحث في أصول الطّريقة التّعلّميّة السّقراطيّة وحدودها اليوم وثنايا التّربية البدنيّة

والنّفسيّة والجماليّة لدى الطّلبة، وفي تحوّلات التّعليم بفعل فيروس كورونا، وفي اضطراب التّعليم بسببه وسُبُل التّصدّيّ له، وفي بدائل تعليميّة تقودها المنظّمة الأمميّة المعنيّة بالعلوم والتّربية والثّقافة، ثمّ الاستراتيجيّات المستخدَمة في التّعليم عن بُعد داخل مجتمعاتنا العربيّة.

نطرح، في هذا السّياق، سؤالا مركزيّا: تحدّيّ ماذا؟ وتحدّيّ من؟ وأيُّ تحدّ بين التّعليم الإلكترونيّ عن بُعد وبين التّغيّرات الاجتماعيّة جرّاء الجوائح الّتي تصيب الإنسان وتُغيّر مجرى حياة الفرد، وروابطه الاجتماعيّة، وطبيعة مناهجه التّعلّميّة والتّربويّة؟ تعليم ماذا الّذي قادنا الوباء إليه، مسرعي الخطى، رغم سنوات التّفكير والتّنظير والتّأمّل والتّعطيل الطّويلة؟

نفترض، في هذا السّياق، أنّ منظومة التّعليم في البلدان العربيّة ستستفيد من أحدث التّكنولوجيات الرّقميّة الّتي طورتها مؤسّسات الاتّصال لحظة الحجر الصّحّيّ الشّامل وما قبلها بسبب وباء كورونا. هذا الوباء الفتّاك الذي أودى بحياة الآلاف من البشر شيبا وشبابا، إناثا وذكورا، وباء قاتل لمن أنهكتهم وأعيتهم الصّحّة، وربما يكون، رغم ذلك، باعثا على أمل جديد في مناهج تعليم متطوّرة ومتجدّدة بما تحمله من إشكالات وصعوبات وعوائق.

ونفترض، أيضا، أنّ تحدّيّ التّعليم عن بُعد زمن جائحة كورونا سيعيد إنتاج روابط اجتماعيّة جديدة بين المتعلّمين أنفسهم، وبين المربّي والمتعلّم. كما سينتج مناهج تربويّة وتعليميّة فوق الواقع، تحمل في باطنها الإيجابيّ والسّلبيّ القابل للإصلاح والتّجاوز والتّطوير، وربّما تعطينا بعض إجابة عن أسئلة حائرة، ظلّت مطروحة خلال السّنوات الأخيرة حول نهاية المدرسة ونهاية السّبّورة ونهاية الكرّاس ونهاية الكتاب المدرسيّ ونهاية المعلّم ونهاية الأستاذ...

إنّ النّهايات، القديمة والمتجدّدة، في العمليّة التّعليميّة مع احتداد أزمة كورونا وما بعدها قد تؤدّي إلى لحظة البدايات في تعليم متطوّر يتجاوز حدود المكان والزّمان وقيود التّلقّي والتّلقين الكلاسيكيّ، فتبني منهاجا تربويّا ثائرا على السّائد عبر التّاريخ، نابعا من عمق تكنولوجيّات المعلومات والاتّصال...

ونعتمد في دراستنا هذه منهجا تحليليا لمضمون معطيات واقعيّة وإحصاءات فرضها إطار مكانيّ وزمانيّ على امتداد سنتي 2020 و2021 لمّا اقتحم الوباء مجتمعاتنا عبر موجات عدّة، ما تكاد تختفي حتّى تظهر بقوّة أكبر لتُوقِع مزيدا من القتلى، وتعطّل سير الدّروس العاديّة في مؤسّسات التّعليم بجميع مستوياته، الابتدائيّ والإعداديّ والثّانويّ والعاليّ.

ومع الوباء، يقوى تحدّيّ الإنسان للمعوّقات، فيتكثّف التّعليم عن بُعد، أين تنتهي الجغرافيا الضّيّقة، ويلتقي المتعلّم مع المعلّم والأستاذ في فضاء افتراضيّ تعليميّ تفاعليّ، رغم أنّ كلّا منهم قد يكون في

أقصى المدينة أو في بلد آخر أو في قارّة بعيدة يختفي البحر الفاصل بينها تحت وقع قوّة الإنترنت والبرمجيّات الذّكيّة والتّطبيقات المعلوماتيّة...

إنّ التّباعد الجسديّ الّذي فرضه الحضور الانتقاليّ في فضاءات التّعليم زمن الحجر الصّحّيّ يذوب بدوره بين شبكات الإنترنت، حيث تصبح شاشة الحاسوب أو اللّوحة الكفّيّة أو الهاتف الذّكيّ تضع الجميع معا ملتصقين وكأنّهم جسد واحد في قسم واحد يتفاعلون بقوّة مع لحظة الإقبال على العلم والمعرفة.

ألسنا أمام تحدّيّ البدايات في التّعليم العابر للمادّة والمكان والزّمان؟

لحظة التّعليم زمن جائحة كورونا وما بعدها هي لحظة التّعليم اللّامادّة، حيث ينتفي الحضور الجسديّ المادّيّ لمختلف أطراف العمليّة التّعلّميّة. وهي لحظة التّعليم اللّامكانيّ، حيث لا حاجة للحضور بنفس المكان لاستكمال حلقة التّعلّم والتّعليم. وهي لحظة التّعليم اللّازمانيّ، حيث يتواصل الدّرس مسجّلا إن غاب أحد المتعلّمين.

إنّ استيعاب حجم هذه التّغيّرات العميقة في العمليّة التّعليميّة والمناهج التّربويّة بفعل جائحة كورونا، يدعونا إلى البحث في بدايات التّعليم، ولاسيّما مناهجه المعروفة بالتّفاعليّة المباشرة، على غرار الطّريقة التّعلّميّة السّقراطيّة الّتي ابتدعها الفيلسوف اليونانيّ سقراط، وطوّرها عنه تلميذه أفلاطون نحو "المحاورات". وهو أسلوب حوار يستنهض الناحية النفسية والعقلية لدى الطلبة، ويركز على غرس معنى التّحدّيّ لديهم.

1- أصول الطّريقة التّعلّميّة السّقراطيّة وحدودها اليوم

يقوم التّعليم في الأصل أساسا على علاقة حيّة تفاعلية وحضورية بين الطالب والمدرّس ذهنيا وجسديا، حتى يحصل التواصل بين الطرفين. وهذا، متعارف عليه منذ الإغريق مع الفيلسوف اليوناني سقراط. وهو أحد الفلاسفة الذين كان لهم أثر كبير في علم الفلسفة والأخلاق في أوروبا، حيث تعتبر "**الطّريقة السّقراطيّة**" واحدة من أفضل الطرق الموجودة والمتبعة في التّدريس، وتنتهج الحوار المباشر بينه وبين طلّابه.

كان لسقراط أثر كبير على الفيلسوف اليوناني الشهير أفلاطون، إذ تتلمذ الأخير على يده. وظهر هذا التأثر في الكتب التي ألّفها أفلاطون، وطريقة التّدريس التي ابتدعها. فقد كانت في شكل حوارات، تُسمَّى بـ"**المحاورات**"، وتتشابه مع النهج الذي اتبعه سقراط في التّعليم.

احتوت طريقة التّدريس التي ابتدعها أفلاطون استنادا إلى كتاب *الجمهورية*[3] على مراحل عديدة، تستهدف الناحية النفسية والعقلية لدى الطلبة، وتدفعهم إلى تحدي عقلهم من أجل إيجاد حلول للمشاكل. وتشمل هذه المراحل:

أوّلا، التّهكّم كأسلوب رئيسي: يتم من خلال هذه المرحلة زعزعة يقين الشخص الذي تتم محاورته من قِبَل الجهة المقابلة. والغاية من ذلك هي إثبات غرور هذا الشخص، وتظاهره باكتساب المعرفة المطلقة في حين أن هذا الأخير جاهل ويدّعي العلم.

ثانيا، عرض الموضوع: إذ يقوم المعلّم بالشرح والإجابة عن استفسارات الطلبة، واستخدام أنشطة داعمة لعرضه.

ثالثا، التثبت والدمج: وهي تكرار الخطوات التي قام بها المعلّم في المرحلة الثانية، ويتم مراجعتها واختبارها وفقاً لما تم عرضه.

وعليه، يُوجّه المعلّم الطلاب بأسئلة ذات معنى، ليسير باتجاه معيّن للحوار الذي يُريد إنشاءه، ويعطي وقتا للطلاب للرد على هذه الأسئلة، بحيث تستمر ردود الطلبة والمتابعة، حتى ينتقل إلى المرحلة الأخيرة، وهي تلخيص النتائج والأفكار الصحيحة وغير الصحيحة. وعند هذه المرحلة، يتم استقصاء النّتائج والأفكار من خلال المناقشة والجدل الجماعي في إطار تفاعل مباشر بينهم. وهكذا، يتوصل الطلبة إلى النتيجة النهائية والمعرفة الحقيقية بطريقتهم الخاصة. ويتحقق ذلك، باستمرار، بإعطاء المعلّم لأسئلة توجيهية، وقيام الطلبة بالبحث للوصول إلى المعرفة النهائية الجديدة. ولا يمكن إغفال ضرورة اتّباع مثل هذا الأسلوب الذي يعتمد على الحوارية والاستنباط كحوارات أفلاطون في مؤلفاته، إذ إن هذه الطريقة لها ميزات وفوائد عديدة، منها:

- تنمية مهارات التفكير العليا لدى الطلبة، وبالتحديد مهارتَيْ المراقبة والتقييم.
- المساعدة في التعرف على قدرات الطلبة الفردية.
- تحديد صلاحية الأفكار الموجودة لدى الشخص وصحتها من عدمها، وتكسير الملل خلال الحصة، وإضفاء التشويق.

وتنطلق الطريقة التّعليميّة السقراطية منذ السّنوات العشر الأولى للطفل، إذ يجب أن يكون التّعليم معنيّا بأجساد الأطفال بعد إقامة ملعب وساحة رياضيّة بكلّ مدرسة. ويشغل اللّعب والرّياضة البدنيّة كلّ

[3] فؤاد زكريا، ***جمهورية أفلاطون***، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1985

منهاج التّعليم. ويجب أن يتلقى الأطفال في الأغلب التّعليم الجسدي، للتأكد من أنهم في ذروة الصحة الجسدية واللياقة البدنية، وكذلك لمحاربة الأمراض والأوبئة بشكل أفضل.

ينطلق أفلاطون في منهجه التربوي من رؤية شمولية متماسكة البنى، حيث لا يحصر تفكيره في الأهداف التربوية وطرائقها ووسائلها، وإنما يركّز بادئ ذي بدء على طبيعة الطفل موضوع التربية، ويتناول المسألة من الجذور.

يتوزع منهاج أفلاطون التربوي على ثلاث مراحل[4]. تناظر المرحلة الأولى منها مرحلة التّعليم الابتدائي والإعدادي في عصرنا، وهي تنتهي في سن العشرين من العمر. ويُعهد بالأطفال منذ الولادة إلى هيئة تتولى شؤونهم. وتتألف تلك الهيئة التربوية من الرجال فقط، أو من النساء فقط، أو منهما معا. ومهمتها الحرص على تربية الأطفال تربية بدنية وروحية متوازنة من غير أن يطغى جانب على آخر.

وتتمثّل التربية البدنية في تدريب الجسم على التحمل وتحقيق الصحة والقوة للفرد، وذلك عن طريق تدريبه على الرياضات البدنية المختلفة، وتنظيم غذائه، وتعليمه ركوب الخيل، وإكسابه القدرة على العيش في ظروف قاسية.

وبما أن الهدف الجوهري للإستراتيجية التربوية في "الجمهورية الأفلاطونيّة" هو إعداد الفرد لأن يكون محاربا كاملا، فمن الواجب أن يصحب الرجال والنساء الذاهبون إلى القتال أطفالهم معهم، حتى يتعلم هؤلاء هذه الحرف بأن يلاحظوا ما يتعين عليهم أن يقوموا به عندما يشبّون. وليس لهؤلاء الأطفال أن يكتفوا بالمشاهدة، بل عليهم أن يكونوا رسلا ومساعدين في كل ما يتعلق بالحرب.

وأما التربية الروحية، فقد شاء لها أفلاطون أن تكون جمالية الطابع. والمادة الأساسية لهذا النوع من التربية هي الموسيقى، ولاسيما تلك المصاحبة للشعر. وما يهم أفلاطون هو إعداد الإنسان المتكامل. لذا، على المحارب أن يجمع بين الشجاعة والإقدام من ناحية، والحس الجمالي الرقيق من ناحية أخرى.

هكذا، أراد أفلاطون أن تتأسس الطريقة التّعليمة المثلى، التي استمدها من أستاذه سقراط. طريقة تساعد طالب العلم على أن يكون حاضرا ذهنيا وجسديا منذ سنواته التّعليميّة الأولى حتى ينمي ذكاءه في إطار المجموعة وحتى يثبت حضوره في مجتمعه. وقد استمرت هذه الطريقة المثالية معتمدة لدى جميع الدول في العالم بالتركيز خاصة على الجانب الحضوري الجسدي لطالب العلم في المؤسسة التّعليميّة التي يزاول فيها دراسته.

[4] "محاورة "المأدبة"، ***جمهورية أفلاطون***، ترجمة. فؤاد زكريا، راجعها عن الأصل اليوناني، محمد سليم سالم، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر القاهرة 1968

لكن، ومنذ أكثر من سنة، فاجأتنا ظاهرة مرضية جديدة قلبت كل الموازين الاقتصادية والاجتماعية بما فيها التّعليم. مفاجأة غير سارة بالمرة، اجتاحت دول العالم دون سابق إنذار ولم يكن ليتصورها أي إنسان. إنه وباء الكورونا أو ما يسمى بالكوفيد 19 الّذي انبثق من مدينة يوهان بالصين في أواخر سنة 2020. وقد أثّرت فيما أثّرت بطريقة مباشرة على التّعليم بجميع مستوياته، حيث حكمت عليه بتغيير مساره الذي اتبعه طوال سنين.

2- تحوّلات التّعليم بفعل فيروس كورونا

استمر النموذج الأفلاطوني الذي أشرنا إليه في بداية البحث، في التّدريس يُتّبع من قِبل أغلب البلدان، غربية كانت أو عربية، حتى عصرنا الحالي، حيث يقوم التّعليم أساسا على علاقة حضورية جسديا وذهنيا بين المدرّس والطالب، ويرتكز أساسا على الكتاب والورق والقلم، وما إلى ذلك من وسائل محسوسة ومباشرة قبل تطور الوسائل التكنولوجية وخاصة الرّقميّة.

لقد مثّل ظهور التّكنولوجيا الرّقميّة منعطفًا مهمًا في تاريخ بثّ المعرفة وتقبلها في المدارس والجامعات والوصول إليها. فبعد أن كان نقل المعرفة وبثها يعتمد على أوعية مادية، مثل الألواح الطينية والبردي والرَّق والجلد ثم وعاء الكتاب المطبوع في منتصف القرن الخامس عشر ميلادي، تغيرت الأمور تبعا للتطور السريع المتلاحق مع ظهور تكنولوجيّات المعلومات والاتصال التي غيّرت من حياة الناس كثيرا في العقدين الماضيين. ولابدّ أن نلفت النظر، هنا، إلى أن التجديد التربوي في مجال التّكنولوجيا أصبح ضرورة تقتضيها متغيرات هذا العصر.

لقد أصبحت التّكنولوجيا الرّقميّة منصّة للابتكار والاستدامة، وأداة لتحقيق رفاهية المجتمع، وواقعا ملموسا في مجال البحث العلمي، والطريق السحري الموصل نحو المعلومات.

لقد أصبح الباحث قادرا بفضل تكنولوجيّات المعلومات والاتصال ورقمنة المعلومات على أن يبحر في عباب المكتبات الرّقميّة الشاملة والبرامج المتخصصة والمواقع الإلكترونيّة للجامعات ومراكز البحث المتخصصة، ليحصل على مبتغاه من المعلومات في مجاله، من خلال ما تتيحه هذه التّكنولوجيا من إمكانيات هائلة للبحث في البيبليوغرافيات والنصوص وسائر أنواع المداخلات في هذه البرامج، وما توفره من أي مكان في العالم باستمرار وإمكانية تخزين المعلومات واسترجاعها بتيسير عجيب.

تحتل التّكنولوجيا أهمية كبيرة فيما يتعلّق بتسهيل عملية التواصل، إذ أسهمت بفعالية في جعل العالم الكبير يبدو وكأنه قرية صغيرة. وتحقّق ذلك بفضل ما قدّمته التّكنولوجيا للناس من وسائل وطرق لتعزيز وتسهيل التواصل فيما بينهم. فتنوّعت هذه الوسائل لتمتد من الهاتف الثابت والهاتف المحمول،

ولتصل إلى شبكة الإنترنت وما يرتبط بها من قدرة تواصل الناس مع بعضهم مع بعض عبر القارات والبلدان المختلفة خلال ثوانٍ معدودة.

يُعدُّ كلّ ذلك سببا في قيام ثورة علميّة ومعرفيّة ضخمة، يترتّب عنها تسهيل حياة البشر، من خلال زيادة الاختراعات في المجالات العمليّة المختلفة. ويمكن رصد أهميتها في البحث العلمي من خلال تمكين الباحث من الوصول إلى محتويات المكتبة ومصادرها في أي وقت يشاء، ومن أي مكان يوجد فيه سواء في منزله أو مكتبه الخاص أو أماكن أخرى خارج مبنى المكتبة دون الحاجة للذهاب إلى المكتبة، بل إن المكتبة الرّقميّة تأتي بالمكتبة إليه.

لعل هذا ما يقودنا إلى الالتجاء إلى وسائل متجددة، يتواصل من خلالها الطلبة مع مدرسيهم، وذلك عبر منصّات بحثية، اعتمادا على شبكة البحث الرّقميّة، أو ما يعرف بالإنترنت. وتعمق هذا التفكير في اللجوء إليها مع اجتياح فيروس "الكوفيد 19" الذي حال دون حضور المدرّس والطالب في اتصال مباشر وتقارب جسديّ، نظرا لسرعة انتشاره وخطورة العدوى.

أحدثت أزمة تفشي فيروس كورونا صدمة عالمية كبيرة، رغم التقدم الطبي المتزامن مع ظهورها. ولكن بقي الجدل مرتكزًا حول تجارب الدول في التعامل معها في مستوى التّعليم، وماهية الأدوات التي استخدموها للسيطرة على انتشار الجائحة، وبالأخص عبر الذكاء الاصطناعي وما ارتبط به من متغيرات عدة، كالخصوصية ومعايير تداول البيانات الشخصية وقيم الحرية والالتزام إلى جانب مصداقية المعلومات الإعلامية وتوظيف التّكنولوجيا في إيصال المعلومة العلمية.

وباجتياح "الكوفيد 19" لحياتنا فجأة ودون سابق إنذار، تأثرت أغلب مرافق الحياة، وتغيرت طريقة التواصل بين البشر، وخاصة في ميدان العلم والتّدريس. وهو الشيء الذي جعل الأولياء يتساءلون عن مصير أبنائهم، وعن طريقة بديلة تجعل الطلبة يُحصّلون المعارف العلمية. هل سيكون التّعليم متاحا من خلال المباني والمؤسسات المعتادة، أم أنها ستتحول إلى طريقة إلكترونية جديدة عن بُعد؟

من الصعب على الأسر والأهالي أن يوافقوا على إحضار أبنائهم إلى تلك المباني التي اعتادوا توصيلهم في السنوات الماضية خوفا من أن يصابوا بفيروس كورونا. وهذا، يجعل كثيرا من العائلات في دوّامة التفكير حول مستقبل أبنائهم، خاصة ممن لا يملكون حواسيب أو هواتف ذكية أو أجهزة فنية أخرى يمكن من خلالها تقديم فصول التّعليم عبر التطبيقات المعلوماتيّة الجديدة. فليست كل العائلات في مختلف بلدان العالم ميسورة الحال وتمتلك موارد مالية كبيرة لشراء الأجهزة الإلكترونيّة الحديثة للتعليم. كما أنها لا

تستطيع أن تربط منزلها بخط توصيل الإنترنت، الشيء الذي يثقل كاهلها بمصاريف شهرية جديدة هي في غنى عنها.

تحتاج مثل هذه القضايا إلى مخارج وحلول تتناسب وقدرات أفراد المجتمع، ليتمكن كل طفل وشابّ من الحصول على قدر من العلم في هذا الزمن الذي ينتشر فيه الوباء بقوة في كثير من المجتمعات.

قدم بعض الخبراء حلولا يرون فيها أهمية لتواصل عملية التّعليم، وذلك بالاستمرار من خلال الدراسة المعتادة في المدارس التي اعتادوا عليها، مع إدخال النموذج الجديد، وهو الدراسة عن بُعد، أي أن تُعطي الأهمية للجانبين: الحضوريّ والـ"عن بعد"، مع ضرورة إعادة النظر في المناهج التّعليميّة وترتيبها وطريقة تدريسها. فليس من المناسب أن يبقى هؤلاء الأبناء محرومين من الذهاب إلى مدارسهم ومعاهدهم ومؤسّساتهم الجامعيّة.

في ظل انتشار وتطور هذه الجائحة وتأثيرها سلبا على سير الحياة العادية للمجتمع، وخاصة التّعليميّة، من خلال الحد والتقليص الممكن في التقاء أفراد المجتمع وجها لوجه، بات الأمر مفزعا في تأمين سير الدروس الحضورية بين المدرّس والتّلميذ والطالب، إذ سيؤدي التأخر في بدء العام الدراسي أو انقطاعه إلى حدوث اضطراب كامل في حياة العديد من الأبناء وأهاليهم ومعلميهم. الشيء الذي دفع بالدول إلى البحث عن الحلول البديلة، ليتواصل تقديم الدروس للطلبة وملء الفراغ المعرفي والعلمي، فكان التفكير في الالتجاء إلى استراتيجيات التّعليم عن بُعد، الّتي طالما كثر الحديث عنها على امتداد سنوات، ولكن لغايات مختلفة، أساسها توفير المال للمستثمرين وأصحاب المشاريع التّعليميّة، باستقطاب طلبة جدد لمؤسساتهم من مواقع بعيدة، وكذلك بالضّغط على مصاريف التّنقّل والطّاقة وكراء وتشييد وصيانة فضاءات التّدريس...

وتُعدُّ البلدان الأكثر ثراء أفضل استعدادا للانتقال إلى استراتيجيات التّعلّم عبر الإنترنت، حتّى وإن اكتنف الأمر قدرا كبيرا من الجهد والتحديات التي يواجهها المعلّمون وأولياء الأمور.

لكن الأوضاع في كل من البلدان متوسطة الدخل والأفقر ليست على شاكلة واحدة. وإذا لم يتمّ التّصرف على النحو المناسب، فإن ذلك الانعدام في تكافؤ الفرص، والّذي يبلغ حدا مروعا وغير مقبول بالأساس، سيزداد تفاقما. فالعديد من الأطفال لا يمتلكون مكتباً للدراسة، ولا كتبا، فضلا عن صعوبة اتصالهم بالإنترنت، أو عدم امتلاكهم للحواسيب المحمولة في المنزل. بل هناك منهم من لا يجد أي مساندة من آبائهم على النحو المأمول، في حين يحظى آخرون بكل ما سبق.

إن اجتياح وباء كورونا المستجد "كوفيد 19" لبلداننا ومجتمعاتنا خرق حواجز الزمان والمكان، فجاءت دعوات التّعليم عن بُعد –التي صاحبت انتشار الفيروس– لتجتاح هي الأخرى حواجز المكان

والزمان. اجتياح مكانيّ، جعل من غياب الحواجز المكانية الثابتة مثارًا للارتقاء إلى عوالم مختلفة عن طريق شبكات الإنترنت الفسيحة. واجتياح زمانيّ، امتلك أدوات التخلص من روتين الذهاب والإياب ومزاحمة الآخرين، بحثا عن سرعة الوصول إلى حيّز مكاني ربما كان أضيق مما تحتمله رحابة العقول مما أحدث اضطرابا كبيرا في سبل تحصيل المعلومة وفرض سياسة جديدة ومتطورة للتصدي لهذه اللخبطة وتجاوزها.

3- اضطراب التّعليم بسبب فيروس كورونا المستجدّ، وسُبُل التّصدّيّ له

بات موضوع التّعليم عن بُعد يفرض نفسه على 80 بالمائة من طلاب العالم حالياً بفعل تفشي فيروس كورونا المستجد. وبحسب منظمة اليونسكو[5]، فإن مليار و37 مليون طالبا لا يذهبون إلى مدارسهم بسبب الحجر الصحي. وقد أطلقت المنظمة تحالفاً عالمياً للتعليم من أجل دعم الدول في توسيع نطاق أفضل حلول التّعلّم عن بُعد، والوصول إلى الأطفال والشباب الأكثر عرضةً للخطر، حيث ذكر تقرير لـ"اليونسكو" أن "انتشار الفيروس سجل رقمًا قياسيًّا للأطفال والشباب الذين انقطعوا عن الذهاب إلى المدرسة أو الجامعة.

وحتى تاريخ 12 مارس 2020، أعلن 61 بلدًا في أفريقيا وآسيا وأوروبا والشرق الأوسط وأمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية عن إغلاق المدارس والجامعات أو قام بتنفيذ الإغلاق، إذ أغلق 39 بلدًا المدارس في جميع أنحائه، مما أثّر على أكثر من 421.4 مليون طفل وشاب. كما قام 14 بلدًا إضافيًّا بإغلاق المدارس في بعض المناطق لمنع انتشار الفيروس أو لاحتوائه. وإذا ما لجأت هذه البلدان إلى إغلاق المدارس والجامعات على الصعيد الوطني، فسيضطرب تعليم أكثر من 500 مليون طفل، وبكل ما يمتلكه من موارد سمعية وبصرية ورسوم توضيحية وصور متحركة.

وقالت المديرة العامة لليونسكو، "أودرى أزولاي"، فى هذا السياق: "لم يسبق لنا أبدا أن شهدنا هذا الحد من الاضطراب في مجال التّعليم". وأضافت قائلة: "إنّ إقامة الشراكات هو سبيلنا الوحيد للمضي قدما". والتخوف الكبير يطال الدول الفقيرة. فحسب البنك الدولي تعد البلدان الأكثر ثراءً أفضل استعداداً للانتقال إلى استراتيجيات التّعلّم عبر الإنترنت، وإن اكتنف الأمر قدر كبير من التحديات التي يواجهها المعلّمون والآباء. فقد فرضت علينا الجائحة تجربة كان علينا أن نخوضها ونفكر فيها منذ مدة طويلة، ونوفر لها كل الأسباب العلمية والتقنية والثقافية والاجتماعية والمؤسسية حتى تتحول إلى واقع.

[5] https://en.unesco.org/covid19/educationresponse/webinars

ظلّ التّعليم في العالم العربيّ يقوم، في أغلبه، على أساس تقديم المعلومة على تحصيل المعرفة، والتلقين على التفاعل. لذلك، لم تتطور التجارب البيداغوجية والتّعليميّة نحو نمط آخر من التّعليم يمكن أن يكون تمهيدا للتعليم الرّقميّ.

لقد جاء هذا التّعليم الناشئ في بيئة وسائطية جديدة، تقطع مع اجترار المعلومات والطرق التقليدية في التواصل مع التلميذ والطالب. لم تتطور صناعة البرمجيات بما فيه الكفاية، ولم تعول كثيرا على الطرق التربوية المتصلة بالوسائط الجديدة. فما حصل في العالم العربيّ في الميدان التّعليمي هو الاشتغال بذهنية قديمة في بيئة جديدة.

أصبح بعض الأساتذة يوظفون تقنيات العارض الإلكترونيّ وشرائح *الباوربوينت* حتى قبل الجائحة، ولكن بطريقة تقليدية لا تتلاءم مع الوسائط الجديدة لغياب تكوين حقيقي يتلاءم مع متطلبات الحقبة الجديدة. فالمؤسسات التّعليميّة غير مجهَّزة، والتلاميذ والطلاب غير مستأنسين بهذا النوع من التّعليم.

إن المنصّات الجديدة التي توفرها التّكنولوجيا الجديدة لم يتم التعامل معها إلا على أساس أنها لوحات مختلفة عن السوداء أو البيضاء التقليدية. أما المحتوى، فهو واحد لم يتغير. ومع ذلك، نجدهم يتحدثون عن التّعليم عن بُعد. فما هي طبيعة المقررات التي كنا نشتغل عليها في مجتمعاتنا قبل الجائحة، وفرضت علينا الانتقال إلى تعليم رقمي؟ وكيف يمكننا نقل تجربة تربوية ما قبل رقمية إلى وسيط رقمي دون مرحلة انتقاليّة، وكأنّ الانتقال فجئيّ مباغت خارج سياق التّخطيط المسبق؟

اخترنا أن نتعامل مع الوسائط الرّقميّة الجديدة على أنها وسائل فقط. لقد استبدلنا، فقط، السبورة والدفتر بالمنصّة واللوحة الإلكترونيّة أو الحاسوب. فالتّعليم الشفوي غير التّعليم الكتابي، ولا علاقة لهما بالرّقميّ، حيث أنه لا يمكن الحديث عن تعليم عن بُعد دون ثقافة رقمية، ووعي رقمي، وبيداغوجيا رقمية، ورؤية جديدة للإنسان المتعلم والمعلّم، وبنيات تحتية تكنولوجية ملائمة.

فرضت علينا جائحة كورونا تجربة كان علينا أن نخوضها، ونفكر فيها، منذ مدة طويلة، ونوفر لها كل الأسباب العلمية والتقنية والثقافية والاجتماعية والمؤسسية، حتى تتحول إلى واقع. كما أننا لم نبذل أي مجهود للارتقاء إلى مستوى العصر الرّقميّ الذي نعيش على هامشه. فهل كان من الضروري أن نمر بجائحة فيروس كورونا لتجاوز الإحجام والتردد في دخول العصر الرّقميّ؟ هذا، هو الرهان. وهذا، هو مدخل المستقبل الذي ينبغي أن تتوحد فيه الجهود العربيّة، حتى نتمكن في حقبة لاحقة من الحديث عن تعليم عربي عن بُعد بصورة مختلفة جذريا؟

اتجهت بعض دول العالم نحو التّعلّم الرّقميّ، وجعل نظام التّعليم عن بُعد نظاما أساسيا بديلا عن نظام التّعليم المباشر، أو ما يُعرف بالتّعليم الصّفّي الحيّ، واتجهت نحو استكمال العمليّة التّعليميّة خلال الفترة الماضية من خلال نظام التّعليم عن بُعد. وقد سلكت هذه الدول هذا المسلك بالذّات بعدما أصبح نظام التّعليم عن بُعد ضرورة حتمية، وواقعا فرضته الأزمة الصحية العالمية شرقا وغربا وشمالا وجنوبا.

وما شهدناه ونشهده يوما بعد يوم على الساحة التّعليميّة، يجعلنا نتفق على أن الأنظمة التّعليميّة في مختلف دول العالم بحاجة إلى جهود كبيرة، وإلى التفكير خارج الصندوق، في سبيل إيجاد وتفعيل العديد من الطرائق والإستراتيجيات الحديثة وغير التقليدية، والتي من شأنها أن تضمن جودة تفعيل منظومة التّعليم عن بُعد. وربما تستمر كنظام تعليمي موازٍ للنظام التّعليمي المعتاد لنا جميعا.

وفي الواقع، إنَّ فكرة التّعليم عن بُعد ليست فكرة حديثة أو جديدة على بعض الأنظمة التّعليميّة في العالم. فهي فكرة تبنتها بعض تلك الأنظمة التّعليميّة، ووضعتها نصب أعينها منذ بضع سنوات، في سبيل ضمان جودة وتكامل منظومة التخطيط الإستراتيجي للتعليم، وتحقيق أعلى مستوى ممكن من جودة الأداء وفق معايير الجودة العالمية. فقد بذلت العديد من الأنظمة التّعليميّة، منذ فترة ليست بالقليلة، جهودا مضنية لتعزيز الواقع التكنولوجي والتقني في العمليّة التّعليميّة ضمن ما قامت به من عمليات تطويرية لمختلف أركان العمليّة التّعليميّة في القدرة المؤسسية والفاعلية التّعليميّة داخل المؤسسات التّعليميّة المختلفة لحرصها على الريادة في توفير فرص تعلم ذات جودة عالية لجميع الطلبة.

ولا شك أن هذه الجائحة توجب على النظم التّعليميّة المختلفة تبني طرائق وإستراتيجيات مبتكرة، من شأنها أن تدعم توظيف واستثمار التّكنولوجيا الحديثة والتحول نحو التّعلّم الرّقميّ من خلال منظومة التّعليم عن بُعد. تلك المنظومة، التي أثبتت جدارتها وأهميتها، على الرغم من وجود بعض التحديات أمامها.

أصبح لزاما على النظم التّعليميّة المختلفة إحداث نقلة نوعية في عمليّتي التّعليم والتّعلّم في ظل الظروف الراهنة، من خلال تبني نظام التّعليم عن بُعد، والذي أصبح ضرورة حتمية على المستوى العالمي. كما أن هذه الجائحة تفرض على النظم التّعليميّة المختلفة صقل مهارات وتعزيز إمكانات الإطار الأكاديمي والإداري بالميدان، ودعم قدراتهم نحو توظيف التّكنولوجيا الحديثة والتحول نحو التّعلّم الرّقميّ في الفترة الحالية والمستقبلية، بالإضافة إلى توفير السبل الكفيلة بتعزيز المستوى المعرفي والتقني للطلبة في مختلف المراحل التّعليميّة، وإكسابهم قيما تحمل مسؤولية تعلمهم بأنفسهم بدعم وتعزيز مباشر من معلميهم ومعلماتهم وأولياء الأمور كافة عن طريق التّعليم عن بُعد.

لقد تحوّل التّعليم عن بُعد من أسلوب تلقيني مباشر، وفي مكان مشترك، إلى أسلوب تفاعلي، مصحوب ببدائل تعليمية تتمثل في مجموعة من المؤثرات البصرية والسمعية، والتي تجعل من العمليّة

التّعليميّة أكثر جذبًا، وتساعد الطلاب على الدخول إلى المحتوى دون التوقف عند عتبات رائحة الأوراق وحبر الأقلام.

4- بدائل تعليميّة تقودها المنظّمة الأمميّة المعنيّة بالعلوم والتّربية والثّقافة

تشير منظّمة الأمم المتّحدة للعلوم والتّربية والثّقافة/ "اليونسكو"[6] إلى أن ثروة الموارد التّعليميّة الرّقميّة قدمت طلبات جديدة على أنظمة ومؤسسات التّعليم العالي، التي تشمل تطوير مناهج ابتكارية، وبرامج دراسية، ومسارات تعليمية بديلة، وطرق التّعليم العالي. وكل ذلك يمكن تيسيره عبر الإنترنت والتّعليم عن بُعد والدورات القصيرة القائمة على المهارات. ووضعت المنظمة مجموعة من البرامج تساعد على التّعلّم عن بُعد، ومنها:

- تطبيق "بلاك بورد" (Black Board)، وهو تطبيق يعتمد على تصميم المقررات والمهمات والواجبات والاختبارات، وتصحيحها إلكترونيًّا، والتواصل مع الطلاب، من خلال بيئة افتراضية وتطبيقات يتم تحميلها عن طريق الهواتف الذكية.
- منصّة "إدمودو" (Edmodo)، وهي منصّة اجتماعية مجّانية توفر للمعلمين والطلاب بيئةً آمنةً للاتصال والتعاون، وتبادل المحتوى التّعليمي وتطبيقاته الرّقميّة، إضافة إلى الواجبات المنزلية والدرجات والمناقشات.
- تطبيق إدراك المعني بتعليم اللغة العربيّة عبر الإنترنت.
- تطبيق "جوجل كلاسروم" (Google Classroom)، الذي يسهِّل التواصل بين المعلّمين والطلاب، سواء داخل المدرسة أو خارجها. وقد لجأت بعض الكليات المصرية مثلا، ومنها كلية الصيدلة بجامعة القاهرة، إلى توفير الاشتراك به مجّانًا لكل طلابها كوسيلة للتعلم عن بُعد.
- تطبيق "سي سو" (seesaw)، وهو تطبيق رقمي يساعد الطلاب على توثيق ما يتعلمونه في المدرسة، وتقاسمه مع المعلّمين وأولياء الأمور وزملاء الدراسة، وحتى في العالم.
- تطبيق "مايندسبارك" (Mindspark)، الذي يعتمد على نظام تعليمي تكيُّفي عبر الإنترنت، يساعد الطلاب على ممارسة الرياضيات وتعلمها.

ساهمت هذه التطورات في دفع المؤسسات التّعليميّة للتحول إلى التّعلّم الإلكترونيّ (E-Learning) بديلا طال الحديث عنه والجدل حول ضرورة دمجه في العمليّة التّعليميّة، خاصة بعد أن تأثرت بشكل مباشر بتطور تكنولوجيا "الذكاء الصناعي" (Artificial Intelligence)، و"إنترنت الأشياء" (Internet

[6] هاني زايد، "التعلم عن بُعد في مواجهة "كورونا المستجد"، جريدة *"العلوم المعرفية"*، بتاريخ 17 مارس 2020.

of Things)، وكذلك ثورة تكنولوجيا المعلومات التي اقتحمت معظم أشكال حياة الإنسان وأصبحت جزءا أصيلا منها.

فبين الجيل المُسمَّى "إكس"، والذي يتميز بتعلقه بأجهزة الهاتف الذكية واستخدام التطبيقات المختلفة، وبين احتياج الصناعة كوادر ماهرة تكنولوجيا، أصبح دمج التّكنولوجيا في العمليّة التّعليميّة توجهاً عالمياً. وأصبح توفير المادة التّعليميّة من خلال الأجهزة المحمولة لـ"جيل إكس" يشكل عاملا محفزا للتعلم بدلا من الاكتفاء بالدراسة التقليدية، لأنها تساعده على نهل المعرفة واكتساب مهارات مناسبة تؤهله لتلبية احتياجات سوق العمل.

إن استخدام الإنترنت في العمليّة التّعليميّة ليس وليد اليوم، بل يعود إلى ما قبل عام 2000. ومعظم الجامعات تعتمد أساسا، اليوم، ما يُسمى "أنظمة إدارة التّعلّم" (Learning Management Systems). وفي ظل أزمة كورونا التي يعيشها العالم، توجهت غالبية المؤسسات التّعليميّة نحو التّعليم الإلكترونيّ بديلا أنسب لضمان استمرار العمليّة التّعليميّة. وزاد بشكل ملحوظ استخدام تطبيقات محادثات الفيديو عبر الإنترنت، مثل "زوم" و"غوغل" و"ميتينغ" و"ويب إكس ميت" وغيرها.

وحسب موقع "تيك كرنش" (techcrunch)[7]، فقد بلغت عمليات تحميل هذه البرامج 62 مليون مرة خلال فترة ما بين 14-21 مارس/آذار 2020، أي مع بداية عمليات حظر التحرك في كثير من الدول. كما تضاعف استخدام كثير من التطبيقات والبرامج التّعليميّة، مثل حقيبة "غوغل" التّعليميّة، و"أوفيس 365"، وتطبيقات "أبل"، ومواقع خدمات التقييم والأنشطة التفاعلية.

5- الاستراتيجيّات المستخدمة في التّعليم عن بُعد

يلجأ كثير من المدرسين إلى ما يسمى "التصميم التّعليمي" (Instructional Design) لإعداد مادة تعليمية تحقق الأهداف بكفاءة عالية. ويقوم هذا التصميم، عموما، على دراسة الاحتياجات التّعليميّة للطلاب، وتحديد الأهداف والوسائل المناسبة لتحقيقها، وضبط أدوات قياس مدى التّعلّم والتغذية الراجعة. ومن النماذج المستخدمة في التصميم التّعليمي، ADDIE وASSURE وغيرها. والتّعلّم الإلكترونيّ ليس استثناء في هذا الجانب. ولكن يبقى السؤال المطروح، هنا، في كيفية تحدي ذلك.

توجد عدة جوانب ينبغي مراعاتها قبل استخدام التّعلّم الإلكترونيّ، نعرض أهمها:

[7] محمد عدنان الصانع، المؤسس والمدير التنفيذي للأكاديمية العربية الدولية حُرِّرَ بتاريخ 2020/10/13 .https://aiacademy. info

– **الوسائل التّعليميّة:** يشكّل اختيار الوسائل التّعليميّة تحديا أساسيا في التصميم التّعليمي التقليدي والإلكترونيّ، لاسيما مع الحاجة الماسة لتوظيف التّعلّم التفاعلي الذي يزيد انتباه الطلبة بإشراكهم المباشر مساهمين لا متلقين. وهذا، سيزيد من عامل التحفيز، وسيحقق نتائج أفضل.

هنا، يجب أن يبذل المعلّم جهداً معتبرا لتحديد الوسائل التفاعلية المناسبة لكل هدف، لأن عملية إشراك الطلبة الموجودين في أماكن مختلفة، والمحافظة على انتباههم عبر الأجهزة، ليس بالأمر اليسير، ولكنه بالتأكيد ليس مستحيلا. وينطبق نفس الأمر على عملية التقييم، خاصة فيما يتعلق باحتساب العلامات. فبينما تعد الامتحانات الكتابية، الوسيلة الأكثر شيوعاً وخصوصا في الامتحانات النصفية والنهائية على الرغم من التحول الملحوظ نحو وسائل التقييم البديلة، فإن التقييم الإلكترونيّ يبدو متعسرا لتعذر عملية المراقبة تفاديا للغش باستخدام نفس الأجهزة.

يتوفر على شبكة الإنترنت كثير من البرامج والتطبيقات لتحقيق تفاعل الطلبة في العمليّة التّعليميّة فرادى أو مجموعات، منها Quizziz وSocrative وPadlet وkahoot وMindmaps، ناهيك عن التطبيقات التي يوفرها "غوغل" و"مايكروسوفت" و"أبل" وغيرها. وكل ما يحتاجه المعلّم هو التخطيط الجيد لاختيار الوسيلة المناسبة لكل هدف تعليمي، إلا أنها قد تكون غير كافية ووافية بعدُ للتقييم النهائي ورصد علامات الطلبة.

– **تغطية الاحتياجات وأنماط التّعلّم المختلفة:** تتمثل مسؤولية المعلّم في تنويع وسائله لتغطي الاحتياجات المختلفة. فالتركيز على التحدث من قبله طيلة وقت الحصة التّعليميّة **قد يكون مناسبا للسمعيين، لكنه مضجر للبصريين والحركيين.** وهنا، يحتاج المعلّم إلى أن يختار البرامج والتطبيقات المناسبة لتجهيز تركيبة من المواد التّعليميّة تتماشى مع الأنماط المختلفة.

– **جاهزيّة المعلّم:** يطلق مصطلح "جيل بيبي بومرز" (Baby Boomers Gen) على الفئات التي وُلدت ما بين عامي 1944 و1964. ومن أكبر المشاكل التي تواجه هذه الفئة هي الجاهزية لاستخدام التّكنولوجيا الحديثة في عملية التّعلّم. وهذا، ليس انتقاصا منهم، ولكنه واقع فرضه الاكتشاف المتأخر لكثير من أجهزة التّكنولوجيا والتطبيقات. وكان من هؤلاء من استشعر أهمية الالتحاق بركبها فتعلمها واستخدمها، ومنهم من ظن أنه في غنى عنها. إلا أن طغيان التّكنولوجيا، وشغف الأجيال بها، والوعي البيئي بضرورة التقليل من استخدام الأوراق، إلى غيرها من العوامل، أدى إلى التحول التدريجي والكبير نحو التّكنولوجيا. وهو ما شكّل صدمة لهذه الفئة، التي غدت الآن تحت أمر واقع، يحتم عليها استخدام التّكنولوجيا، وبتفصيل يتعدى تحميل ملفات، ومشاركتها على السحابات الإلكترونيّة إلى ما هو أبعد من ذلك.

وتوجد فئة أخرى ليست من هذا الجيل، وإنما من "جيل إكس" و"جيل الميلينيالز" (millennials)، عاشت حالة من الإنكار والتجاهل لكل هذه المتغيرات. فلم تعمد إلى استخدام التّكنولوجيا بشكل مناسب في السابق، وهي الآن تعيش نفس المعضلة. إلا أنها ربما أفضل حالاً من الجيل السابق، نظراً لمعرفتها بأساسيات التّكنولوجيا. ولذلك، نجم عن أزمة كورونا إطلاق دورات للمعلمين في مجال التّعلّم الإلكترونيّ ووسائله المتنوعة. ومما لا شك فيه أنهم سيواجهون تحديا محرجا، وهو سرعة طلابهم في مواكبة التّكنولوجيا مقارنة بهم. وخيارهم، هنا، هو تقبُّل الأمر بروح رياضية.

– **توفر التّكنولوجيا:** يعدّ توفر التّكنولوجيا عاملاً مهماً لنجاح فكرة التّعلّم الإلكترونيّ. فمن دونه سيغدو الأمر مجرد حلم. وهناك مستويات مختلفة لهذا التحدي. فتوفر الأجهزة وشبكة الإنترنت وسرعة الإنترنت وحُزَم الإنترنت، كل منها يُعدّ تحدياً بذاته أو مجتمعاً مع الأخريات. فقد يتوفر للطالب، أو حتى المعلّم، الجهاز، إلا أنه قد لا تتوافر لديه خدمة إنترنت أساساً. وإن توافرت، فقد تكون بطيئة، أو ربما بحزمة غير كافية لتغطية عروض الفيديو والمواد ذات الحجم الكبير. وهنا، لا بد للمعلم من أن يعرف أوضاع طلابه جميعا، ليختار الطرق الأكثر مناسبة للمجموع. فمثلا، إذا كانت المشكلة تتعلق بعدم توافر حزم كافية لدى الطلبة، يمكن تحضير المواد بأحجام صغيرة أو متوسطة. وقد يكون من الأفضل أيضا تقليل استخدام الفيديو في اللقاءات المباشرة، أو استخدامها لوقت قصير.

وضع فيروس كورونا المستجد مؤسسات التربية والتّعليم معظم الدول الغربية بصفة عامة، والعربيّة بصفة خاصة، أمام تحديات مواصلة المسيرة التّعليميّة في ظل تعطيل المدارس والانتقال إلى منظومة التّعليم عن بُعد. وجاءت أزمة الفيروس في وقت تعاني فيه بلدان العالم من أزمة تعليمية عالمية. وقد خلقت هذه الأزمة انعداما في المساواة في النظم التّعليميّة التي تعاني منها معظم البلدان.

تعاني الدول النامية الفقيرة أكثر من غيرها صعوبات عديدة في التّعليم. لعل أخطرها عجزها عن توفير ميزانية كافية لتمويل هذا المجال رغم أهميته المحلية والعالمية. كذلك تظل هذه الدول عاجزة عن توفير المرافق الأساسية للتعليم. وهو ما يجعلها متأخرة عن مواكبة التّكنولوجيا، وما يضعها أمام تحد كبير لتوفير مساحة للتعليم عن بُعد في ظل مجابهة فيروس كورونا الجديد، خاصة مع عدم تكافؤ فرص التّعلّم بالنسبة إلى الطلاب الفقراء أكثر من غيرهم. زد على أنها لم توفر بنية تكنولوجية متينة لتتمكن من إيصال المعلومة وتعميمها. كما تعاني من شبكات تواصل هشة، وإنترنت ضعيفة، وأجهزة ذكية غير متاحة للجميع، وغيرها من المشاكل.

تحاول الدول الفقيرة إنجاح عملية التّعلّم عن بُعد، وبذل الجهود لذلك، رغم غياب التهيئة والاستعدادات اللازمة لخوض هذه التجربة. ولكنها، حاولت رغم قلة الإمكانيات أن تمد عددا محدودا من الطلبة بجزء الدروس المعطلة أثناء فترة الحجر.

6- حدود التّعليم عن بعد

لقد "شهدت أنظمة التّعليم في العالم خلال العام الجاري اضطراباً غير مسبوق بفعل جائحة الكورونا، فأغلقت معظم مدارس وجامعات العالم أبوابها أمام أكثر من 1.5 مليار دارس، أي ما يزيد على 90% من إجمالي الدارسين، وذلك بحسب أرقام حديثة صادرة عن معهد اليونيسكو للإحصاء. وقد اتفق خبراء التّعليم على أن التّعليم ما بعد الكورونا لن يكون كما قبله، خاصة مع ظهور بنية تحتية عالية الأتمتة باستخدام مُعطيات الثورة الصناعية الرابعة، وأنظمة الذكاء الاصطناعي.[8]

لقد أثبتت صحيفة *نيويورك*، في عددها الصادر بتاريخ 3 آذار / مارس[9] 2021 أن المدارس ظلت مغلقة تماماً لأكثر من 168 مليون طفل في العالم لمدة عام كامل تقريباً بسبب الإغلاقات العامة الناجمة عن كوفيد 19، وفقاً لبيانات جديدة أصدرتها اليونيسف في هذا اليوم. زد على ذلك، أشارت إلى خسارة حوالي 214 مليون طفل في العالم، أو طفل واحد من كل 7 أطفال، أكثر من ثلاثة أرباع مدة التّعليم وجهاً لوجه. وتستعرض هذه الأرقام المفزعة مدى فداحة الوضع التّعليمي الذي وصلت إليه المؤسسات التّعليميّة، حيث صرحت المديرة التنفيذية لليونيسف، السيدة "هنرييتا فور"، "إذ نقترب من مدة سنة لوقوع جائحة كوفيد 19، فإننا نستذكر من جديد الحالة الطارئة الكارثية للتعليم في العالم التي نجمت عن الإغلاقات العامة. فمع كل يوم يمر ولا يتمكن فيه الأطفال من الحصول على التعلّم الشخصي، فإنهم يتخلفون أكثر عن الركب، ويتحمل الأطفال الأشد عرضة للتهميش الوطأة الأشد. وليس في وسعنا أن ندخل سنة ثانية من التّعليم الشخصي المحدود، أو دون تعليم شخصي، لهؤلاء الأطفال. ويجب ألا ندخر جهداً لإبقاء المدارس مفتوحة، أو إيلاء الأولوية لها في خطط إعادة فتح المؤسسات"[10].

وينجرّ عن هذا الوضع المتأزم لغلق المؤسسات التّعليميّة، تبعات مدمرة على تعليم الأطفال وعافيتهم، إذ يؤثر خاصة على الأطفال الأشد ضعفاً نظرا لعدم تكافؤ الفرص، وغير القادرين على الحصول على التعلّم عن بُعد ويحدث خطراً زائداً بإمكانية الانقطاع عن التّعليم. يضاف إلى ذلك أن المتعارف عليه هو اعتماد معظم أطفال المدارس في العالم على المؤسسة التّعليميّة مكانا يتمكنون فيه من التفاعل مع أقرانهم،

[8] البغدادي فاطمة، "تحوّلات التعليم في زمن ما بعد الكورونا"، ***مجلة العربية***، بتاريخ 10 أكتوبر 2020.

[9] Sara Alhattab, UNICEF New York, édité le 03 Mars 2021. Lu et consulté le 27 Avril 2021.

[10] نفس المرجع.

والحصول على الدعم والخدمات الصحية والتحصين وعلى وجبة مغذية. وكلما طالت مدة إغلاق المدارس، ظل الأطفال منقطعين عن هذه العناصر الحيوية. فاللجوء إلى التّعليم عن بعد ليس حلا ناجعا، بل على العكس سيخلق عزلة بين الدارسين وينمي الغربة بينهم وبين المدرس. لذلك، تدعو المنظمة إلى وجوب إيلاء الأولوية لإعادة فتح المؤسسات التّعليميّة للتعليم الحضوري، والعمل على إعادة فتحها في ظروف أفضل مما كانت عليه في السابق.

ونستخلص من هذا الوضع الجائحي أن إقفال المدارس والجامعات يترك آثاره السلبية على التلامذة والطلاب من زوايا عديدة نفسية وسلوكية وتربوية[11]. ويزداد الأمر خطورة عندما نجد أنفسنا أمام فرضية كبرى تقوم على تهديد مستقبل طالبي العلم، لأننا –أحببنا أم كرهنا– فالمدرسة والجامعة بتقاليدها وتعاليمها تقوم أساسا على غرس تربية وتنشئة الدارسين على قيم عامة ومبادئ خاصة تعزز بهم ثقة الطالب في نفسه وفي غيره حتى يحصل التنافس الشريف بينهم ويتفوقوا وعليه يتمكنوا من التجاوب مع اعتبارات نظامية واجتماعية ومهنية.

سيشهد قطاع التّعليم عن بعد أوضاعاً جديدة في كثير من دول العالم على وجه العموم، ولعل أهمها:

* التباعد الاجتماعي: حيث ينتفي الجانب العلائقي بين الدارسين، إذ تغيب فيه المُصافحات والتقارب الجسدي، مما يقلل من الصداقات وبناء علاقات اجتماعية وتعليق العديد من الأنشطة التطبيقية كالرياضة والموسيقى وما إلى ذلك من ممارسات ثقافية تتطلب وجوبا الحضور الجسدي وليس الافتراضي.

*عدم حضور الطلبة في المؤسسة سيولد دون شك مزيداً من الضغوط على أعضاء هيئة التّدريس والطاقم الإداري.

*إعادة تعريف دور المُدرّس باعتباره صاحب المعرفة، من مدرس يُضفي الحِكمة على طلابه، إلى مجرد مصدر للمعلومات لا غير، حيث ينتفي عنه الجانب التربوي والتوعوي والنفسي مع الدارس خاصة مع توسُّع دوائر ولوج الطلاب إلى الموارد المعرفية عبر نظم التّعليم الرّقميّ التي تقلص من الدور التقليدي لهذا المدرس.

*صعوبة تدريس المواد التطبيقية أو التقنية وخاصة المواد العلمية مثل التجارب المخبرية في الكيمياء أو في الطب وكذلك الفنية مثل المسرح أو الموسيقى التي تتطلب الحضور الجسدي للدارس في ورشته أو في مخبره بصفة مباشرة.

[11] هواري زهير، "التعليم في زمن كورونا: خلاصات وتوصيات"، ***مجلة العربي الجديد***، *بتاريخ* 09 ديسمبر 2020

*عدم جاهزيّة البُنية التحتية المطلوبة للتعليم عن بعد، فهي غير متوفرة في العديد من الدول الضعيفة، إذ تتطلب عملية التّعليم هذه عناصر بشرية مؤهلة ووسائل تقنية مطلوبة للنجاح.

لكن، ومع ذلك، وجب القول بأن مسألة التّعليم عن بُعد يجب أن تتجاوز حالة التفاعل مع الظرف الراهن لتتحول إلى توجه عام مستدام، ما يجعل منها عملية تعليم مستمر، يتم بعضه الآن تحت إشراف الهيئات التّعليميّة، ليصبح بعده بمثابة تعلم ذاتي متواصل مدى الحياة من خلال حض الطلاب على البحث والمشاركة وإشراك الأهل في العمليّة.[12]

وعليه، يجب أن نشدد على ما يلي:

1 . دور الدولة في تنظيم بنية تحتية صلبة لشبكات الاتصال، قصد تسهيل عملية إيصال المعلومة.

2. توفير ميزانية كافية للتعلم.

3. الاهتمام بالبرامج الإلكترونيّة، ووضعها تحت رقابة الدولة.

4. توفير أجهزة ذكية للطلاب تحت سلطة الدولة، لتتمكن من تتبعها.

5. توفير برامج تعليمية للإطار التربوي، وما يشمله، لتحسين أداء المعلّم كما المتعلم.

6. تنظيم التّعليم، وتحديثه، لمواكبة التطور التكنولوجي، واللحاق بعجلة التطور.

7. تأمين تعليم مجاني لكل الفئات الاجتماعيّة، لتقليص التفرقة بين المتعلمين.

8. وضع استراتيجيات علمية جديدة لتخطي الأزمة.

الخاتمة

لقد أظهرت جائحة كورونا تفاوتات في الأنظمة التعليميّة في كثير من الدول العربيّة، مما زاد من عامل الضغطّ النفسي على الأهل والمتعلمين علىّ حد سواء. وأدى إلى غلق المؤسسات التّعليميّة لفترات متفاوتة المدة حسب خطورة الوضع الوبائي، الشيء الذي دفع أغالب هذه الدول إلى البحث عن حلول بديلة للحد من توقف الدروس الحضورية. فسعت جاهدة وحسب الإمكانيات المتوفرة لديها في التفكير في الحل البديل أمام هذا الوضع الكارثي الذي سببه الحجر العام لجميع فئات المجتمع ومن بينهم الدراسون. فكان التوجه مباشرة إلى آلية التّعليم عن بعد.

وعليه، يمكن القول إن خوض تجربة التّعليم عن بُعد يعد خطوة أولى محفزة لتطبيقه في منظومة التّعليم في العالم العربيّ، ودافعا لمزيد الاهتمام بالتّعليم، وتجاوزا للنظرة التقليدية للتعلم وتطويره لمواكبة

[12] نفس المرجع.

التطور التكنولوجي. ويبقى أمام جميع الأنظمة التّعليميّة مهمة واحدة، ألا وهي التغلب على أزمة التّعلّم التي نشهدها حاليا، والتصدي للجائحة التي نواجهها جميعا.

ويتلخص التحدي الماثل، اليوم، في الحد من الآثار السلبية لهذه الجائحة على التّعلّم والتّعليم المدرسي ما أمكن، والاستفادة من هذه التجربة للعودة إلى مسار تحسين التّعلّم بوتيرة أسرع. ويجب على الأنظمة التّعليميّة، مثلما تفكّر في التصدي لهذه الأزمة، أن تفكّر أيضا في كيفية الخروج منها وهي أقوى من ذي قبل، وبشعور متجدد بالمسؤولية من جانب جميع الأطراف الفاعلة فيها بإدراك واضح لمدى إلحاح الحاجة إلى سد الفجوات في فرص التّعليم وضمان حصول جميع الأطفال والشّباب على فرص تعليم جيد متساوية.

البيليوغرافيا

- هاني زايد، "التعلم عن بُعد في مواجهة "كورونا المستجد""، **جريدة** ***"العلوم المعرفية"***، بتاريخ 17 مارس 2020.
- محمد عدنان الصانع، المؤسس والمدير التنفيذي للأكاديمية العربيّة الدولية حُرِّرَ بتاريخ 13 أكتوبر 2020.
- فاطمة البغدادي، "تحوُّلات التّعليم في زمن ما بعد الكورونا"، ***مجلة العربيّة***، بتاريخ 10 أكتوبر 2020.
- زكريا فؤاد ، ***جمهورية أفلاطون***، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1985.
- زهير هواري، "التّعليم في زمن كورونا: خلاصات وتوصيات"، ***مجلة العربيّ الجديد***، *بتاريخ* 09 ديسمبر 2020.
- زكريا فؤاد، "محاورة "المأدبة"، ***جمهورية أفلاطون***، ترجمة. فؤاد زكريا، راجعها عن الأصل اليوناني، محمد سليم سالم، دار الكاتب العربيّ للطباعة والنشر، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة 1968.

-https://en.unesco.org/covid19/educationresponse/webinars

-Sara Alhattab, UNICEF New York, édité le 03 Mars 2021. Lu et consulté le 27 Avril 2021.